الفصل الثامن عشر

الخلاصة في التعريف بأهل البيت

يقول علماء الشيعة الإثني عشرية أنهم أتباع مدرسة أهل البيت، وأن ذلك متحقق من خلال بيعتهم للإمام الثاني عشر، الغائب عن الأنظار منذ مئات السنين.

وما دام الإمام غائباً فإن حلقة الوصل مقطوعة؛ لذلك اخترع بعضهم نظرية الولي الفقيه، الذي يعتبر نائباً عن الإمام.

واخترعوا أيضا نظرية المرجع الأعلى الذي يفتي في غياب الإمام الغائب.

أي أن الممارسة الواقعية تجعل كل الشيعة مثل المسلمين السنة. يقبلون بالشورى ويستفتون أهل العلم الذين لا يدعون ولاية ولا عصمة.

لكن علماء الشيعة لا يبدون استعدادا للاعتراف بهذا الواقع وإسباغ الشرعية الدينية عليه، ويحتجون على المخالفين دائما بأنهم

أتباع مدرسة أهل البيت، مع أن الحوارات التي أدرتها بينهم وبين علماء السنة، أوصلتني إلى نتيجة واضحة، هي أن علماء السنة أقرب بكثير إلى ما يقوله الإمام علي ﷺ من علماء الشيعة، بل لا مجال للمقارنة أصلا بين الطرفين، أعني أن علماء السنة أقرب لأقوال الإمام علي بآلاف الأميال من نظرائهم الشيعة، إن جاز التعبير.

وهكذا فإن دعوى انتساب الإخوة علماء الشيعة الإثني عشرية لمدرسة أهل البيت ليست قائمة على أساس صلب وثابت، وكثير من الأقوال والآراء الشائعة في المذهب مخالفة بشكل واضح للآراء المنسوبة للإمام علي في كتاب نهج البلاغة الذي يعتبر أوثق المصادر عند الشيعة.

وأحب أن أتم النقاش عن أهل البيت في هذا السياق بتقديم خلاصة في التعريف بهم وبحقوقهم.

كان للرسول ﷺ بصفته إنسانا، عائلة وأقارب، مثلما هو حال عامة الناس، أهله المقربون هؤلاء شرفوا بقرابته، ولكن القرابة وحدها من دون إيمان وعمل صالح لا تنفعهم شيئا، فالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات زاد قدرهم وتضاعفت مكانتهم، بالإيمان والتقوى أولا، ثم بشرف القرابة من خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ثانيا، أما من أعرض من هؤلاء عن هدي الإسلام وشرعه فإن قرابته من رسول الله ﷺ لن تغني عنه من الله شيئا.

أهل البيت النبوي الشريف، أو آل محمد ﷺ، هم أزواجه، وبناته، وأحفاده من السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وأعمامه، وبنو أعمامه، وذرياتهم.

زوجات النبي ﷺ من أهل بيته. وبناته من أهل بيته. وحمزة سيد الشهداء عم النبي ﷺ من أهل البيت، والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ من أهل البيت، وجعفر الطيار، جعفر بن أبي طالب سفير الإسلام الموفق المشهور إلى الحبشة وابن عم رسول الله ﷺ من أهل البيت، وعلي بن أبي طالب من أهل البيت، وعقيل بن أبي طالب من أهل البيت، وذرية هؤلاء جميعا موصولون بالنسب النبوي الشريف.

تدل الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة والآثار المعتبرة أن أهل البيت النبوي الشريف، أو آل محمد ﷺ الأقربين باعتبار القرابة العائلية، هم أزواجه وذريته ﷺ وأرضاهم، وآل عمه العباس رضي الله عنهم وأرضاهم، وآل أبناء عمه أبي طالب: علي، وعقيل، وجعفر ﷺ جميعا وأرضاهم. ومن أعلام أهل البيت الذين ماتوا في حياة رسول الله ﷺ أعظم زوجاته شأنا، السيدة النبيلة الكريمة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وعمه الفارس الشجاع سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ﷺ وأرضاه.

وتدلنا الأحاديث والآثار المعتبرة أن آل محمد ﷺ بالمعنى الروحي والفكري هم كل تقي، وكل صالح من المؤمنين برسالة الإسلام.

هذا مدخل مباشر، وهذه الآن أدلته من أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ومن الآثار المعتبرة.

حديث العترة

أورد الإمام مسلم في صحيحه هذه الرواية:

حدثني زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعا عن ابن علية. قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حيان، حدثني يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم. فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا، رأيت (بفتح التاء) رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا ابن أخي، والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: "أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به". فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: "وأهل بيتي، اذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي". فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال ومن هم؟ قال هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال نعم. (وفي رواية أخرى ورد ما يلي: فقلنا: من أهل بيته، نساؤه؟ قال: لا وأيم الله.

إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده)

صافي القول المنسوب هنا لرسول الله ﷺ، هو: "ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي". أما الباقي كله من الرواية فشرح من زيد بن أرقم رضي الله عنه وأجوبة منه عن أسئلة حصين بن سبرة.

الصلاة الإبراهيمية

روى الإمام مسلم قال:

حدثنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار واللفظ لابن المثنى، قالا حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن الحكم، قال سمعت ابن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: "قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد".

وفي صحيح مسلم أيضا عن مالك بن أنس، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه عن عمرو بن سليم، قال أخبرني أبو حميد الساعدي

أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: "قولوا: اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد".

اصطفاء النبي ﷺ من بني هاشم وقريش

روى الإمام مسلم في صحيحه عن الأوزاعي عن أبي عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".

حديث الكساء

وفي علاقة بما نزل من الوحي في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾. (آل عمران: ٥٩-٦١) جاء في صحيح مسلم، الحديث ٢٤٢٤، أنه لما نزلت هذه الآية "دعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحسناً وحسيناً: فقال اللهم هؤلاء أهلي".

النبي ﷺ ولي للصالح من المؤمنين

وروى الإمام مسلم في صحيحه أيضا هذا الحديث:

حدثني أحمد بن حنبل، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سر يقول: ألا إن آل أبي، يعني فلانا، ليسوا لي بأولياء. إنما وليي الله وصالح المؤمنين". (٥) وسبب الكناية بفلان رغبة من الراوي في عدم تسمية الشخص المعني صراحة لتجنب الحرج والتركيز على المعنى العام، (قيل في بعض المصادر إن المكنى عنه هنا هو الحكم بن أبي العاص)

هذا المعنى العام أو الرئيس هو تأكيد النبي ﷺ أن وليه الله سبحانه وتعالى والصالح من المؤمنين حتى لو كان نسبه بعيدا عن نسب المصطفى عليه الصلاة والسلام. أما ذو النسب القريب من النبي ﷺ فليس وليا لرسول الله ﷺ إذا لم يكن من الصالحين.

أحاديث أخرى ذات صلة

وورد في كتب الحديث أن الناس علقوا على تزامن كسوف الشمس مع وفاة ابراهيم ابن النبي ﷺ. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته". (متفق عليه)

وعندما سرقت امرأة من بني مخزوم، وهم قوم أهل شرف ومكانة

في الجاهلية، جاء من يتشفع لها عند رسول الله ﷺ، فكان جوابه: "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها". (رواه البخاري)

نتائج مستخلصة

من المهم أن ينظر المسلم في هذه الأحاديث النبوية مجتمعة، ليتجلى له بوضوح كامل المقام الرفيع لآل محمد ﷺ في سياق ما جاءت به الشريعة من تأكيد قاطع للمساواة بين المؤمنين، ولاعتبار التقوى ميزان التفاضل بين الناس.

الحديث القائل: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم" خاص ببيان كرامة رسول الله ﷺ، وليس في هذا شك ولا ريب، فقد نال عليه الصلاة والسلام شرفا لم ينله أحد من البشر غيره، منذ خلق الله أبانا آدم وإلى أن يرث سبحانه الأرض ومن عليها.

وفي الحديث بيان لما نال بني هاشم وقريشا وكنانة من الفضل بخروج خاتم الأنبياء من بينهم، ولكن هذا الفضل لا يعطيهم أي امتياز خاص على بقية الناس في الأحكام الشرعية والمعاملة القانونية، بدليل قوله ﷺ للذين جاؤوا يتشفعون للمرأة المخزومية: "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"، وبدليل رده أيضا على الذين زعموا أن الشمس كسفت حزنا لوفاة ابن النبي ﷺ، إذ قال لهم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته".

من هم آل محمد ﷺ؟

في ضوء الأحاديث النبوية الشريفة التي تم إيرادها بين يدي هذا الفصل، وفي ضوء ما ذكر فيما سبق من هذا الكتاب، يتبين بشكل واضح أن هناك معنيين رئيسيين لآل محمد ﷺ.

أما الأول فمرتبط بالقرابة العائلية لرسول الله ﷺ. وأما الثاني فمرتبط بالقرابة الروحية التي تجعل المسلم أخا للمسلم، وتجعل النبي ﷺ إماما وقدوة للمسلمين جميعا في كل زمان ومكان، وتجعل آل محمد ﷺ كل تقي، كما جاء في رواية لم يخرجها البخاري ولا مسلم، ولذلك لم أستشهد بها.

في المعنى الأول لآل محمد ﷺ، يأخذ المسلم بالأسلم والأحوط والأقرب لمقتضيات العقل والمنطق وما تعارف عليه الناس، ففي إحدى صيغ الصلوات الإبراهيمية المروية في صحيح مسلم يقرأ الباحث قول النبي ﷺ في معرض تعليم أصحابه: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد".

آل محمد ﷺ بمقتضى هذا الحديث هم أزواجه وذريته. وأزواج النبي ﷺ لهن مقام عظيم، خاطبهن المولى عز وجل خطاباً مباشراً يبين فضلهن على سائر النساء فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾. (الأحزاب: ٣٢). وهن أيضا أمهات لسائر المؤمنين بأمر القرآن الكريم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾. (الأحزاب: ٦)

وقد سبقت الإشارة لحديث الكساء الذي بيّن مكانة سيدنا علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعا وجعلهم ضمن أهل بيت النبي ﷺ.

وهناك أيضا رأي زيد بن أرقم في حديث الثقلين، عندما سأله جلساؤه: أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال ومن هم؟ قال هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس.

من المهم جدا أن يلاحظ المرء هنا أن زيدا يقول برأيه ولا يروي تعريف آل البيت عن رسول الله ﷺ مباشرة. كما أن قوله "أهل بيته من حرم الصدقة بعده" فيه إشارة إلى توجيه النبي ﷺ بأن الزكاة والصدقات لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، وهو توجيه ثابت عن النبي ﷺ ومتفق عليه بين عموم المسلمين.

إذا اعتمد المسلم رأي زيد بن أرقم، ونظر إليه مع الحديث النبوي السابق الذي يبين نص الصلاة الإبراهيمية فإنه يصل إلى أن آل محمد ﷺ هم أزواجه وذريته رضي الله عنهم وأرضاهم، وآل عمه العباس رضي الله عنهم وأرضاهم، وآل أبناء عمه أبي طالب: علي، وعقيل، وجعفر رضي الله عنهم جميعا وأرضاهم.

ومن أعلام أهل البيت الذين ماتوا في حياة رسول الله ﷺ أعظم زوجاته شأنا، السيدة النبيلة الكريمة خديجة بنت خويلد رضي الله

عنها وأرضاها، وعمه الفارس الشجاع سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه.

هذا هو المعنى المرتبط بالقرابة مباشرة. وهو ينطبق أيضا على أي شخص آخر. فلو سألنا اليوم عن آل فلان من الناس، سواء كان فلان هذا حاكماً، أو رجل أعمال مشهور، أو مفتياً أزهريًّا، أو كاتباً ومفكراً مرموقاً، أو إنساناً عاديًّا من عامة الناس، لكان الجواب الطبيعي واضحا: إنهم زوجته وأبناؤه وأقاربه.

ميزة آل محمد - طبعا - أن قرابتهم ليس لشخص من عامة الناس وإنما لخير خلق الله كلهم، عليه الصلاة والسلام، فحبهم من حبه. وتبجيلهم من تبجيله، وتوقيرهم من توقيره.

فما من مسلم على وجه الأرض، يحب النبي ﷺ، إلا كان حب آل البيت مزروعاً في قلبه. وما من مصل يركع لله تعالي ويسجد في الصلوات المفروضة وفي النوافل إلا ضمّن التشهد الختامي لصلاته صلاة زكية على محمد ﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما الرأي الثاني لزيد بن أرقم الذي أخرج فيه أزواج رسول الله ﷺ من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، فمرجوح أو مردود لهذه الأسباب:

- لأنه مختلف مع ما نسب إليه في الصيغة الأولى للرواية.

- لأنه مخالف للمعاني التي استخدم بها مصطلح أهل البيت

في مواضع كثيرة في القرآن الكريم بقصد الحديث عن زوجة سيدنا إبراهيم أو زوجة سيدنا موسى عليهما السلام.

- لأنه متضارب مع ما جاء في إحدى صيغ الصلوات الإبراهيمة التي ذكرت الأزواج والذرية.

- لأنه متناقض أيضا مع القرائن الأخرى التي عرضت في سياق هذا الكتاب والتعريفات المنطقية المتعارف عليها بين عامة الناس لمصطلح أهل البيت.